الملكة ضيفة خاتون الايوبية الكردية (ت 641 ه / 1243 م) نموذجاً للادارة والقيادة

أ.د. كرفان محمد احمد
جامعة دهوك، كلية العلوم الانسانية، دهوك/ العراق
Karavan.ahmed@uod.ac
ORCID ID: 0000-0002-9652-150x

المقدمة:

تعد الدولة الايوبية واحدة من اشهر الدول الكردية، التي ظهرت في العصور الوسطى (الحقبة الإسلامية)، بفضل الإنجازات العسكرية والسياسية التي حققتها تلك الدولة ابان عهد السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي، المؤسس الرسمي للدولة، ولاسيما الانتصارات الكثيرة التي احرزها على الصليبيين وأكثرها أهمية هي معركة حطين (583ه / 1187م)، حيث كسر فيها شوكة الفرنجة،واسر اشهر قادتهم، وقتل اشرسهم (رينالد دي شاتيون)،ثم حقق في عهده عسكريا ما لم يحققه قبله أي من الخلفاء العباسيين او الفاطميين، او السلاطين السلاجقة، او الامراء الاراتقة، عندما استرد بيت المقدس من المحتل الصليبي، وذلك في السنة نفسها، بعدما كان الصليبيون قد احتلوها لما يقارب من ال (92) سنة.

ولم يكن تميز الدولة الايوبية في المجالين السياسي والعسكري فقط، بل تميزت بوجود العديد من العلماء والفقهاء والادباء والكتاب،الذين يُشهد لهم بالنبوغ والعلم والمعرفة.

لكن من ناحية أخرى، الى جانب تلك النخبة الرجولية، كانت للمرأة دور واضح في مناحي الحياة المختلفة في الدولة الايوبية،ولها مساهمات عمرانية واجتماعية وعلمية،على قدر كبير من الأهمية، ناهيك عن مشاركة البعض من خاتونات البيت الايوبي في المجال السياسي وإدارة الدولة.

وان التاريخ الكردي - الايوبي، حافل باسماء العديد من السيدات اللواتي، كان لهن دور واثر بارز في عهود سلاطينها، وكانت ضيفة خاتون بنت الملك العادل الايوبي واحدة من تلك الاسماء المشرقة في ميداني الادارة والسياسة في مدينة حلب بعد وفاة زوجها الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين الايوبي سنة (613 ه / 1215 م)، واثبتت قدرة فائقة في تسيير امور الدولة بمصاحبة بعض المساعدين الاكفاء، وتمكنت في الحفاظ على هيبة المملكة في وقت كانت الصراعات الاسرية على اشدها بين الامراء والملوك الايوبيين من اجل توسيع ممتلكاتهم.

كانت مملكة حلب الايوبية واحدة من اكثر الممالك تاثير في رسم سياسة الدولة الايوبية ولاسيما في عهد السلطان صلاح الدين الايوبي، بسبب غناها بالموارد المالية والبشرية، فضلا عن تاثيرها السياسي والعسكري كونها تتاخم بعض الحصون والقلاع الصليبية، ناهيك عن ان اميرها كان ابن السلطان صلاح الدين وهو الملك الظاهر غازي، وبالتالي ان من كان يحكم تلك المملكة يجب ان يكون على قدر واهمية كبيرة من المعرفة السياسية والادارية، فبعد وفاة الملك الظاهر غازي سنة (613 ه / 1215 م)، استجمع كبار قادة المملكة و امرائها ارائهم على ان تتولى زوجته الخاتون ضيفة بنت الملك العادل الايوبي مهمة ادارة حلب خلال مرحلة الوصاية على العرش لابنها الملك العزيز محمد حتى تسنمه السلطة سنة (623 ه / 1226 م).

تمكنت ضيفة خاتون من ادارة المملكة بروح قوية و ارادة لاتلين، بل كانت على مستوى كبير من الدبلوماسية في التعامل بحنكة كبيرة مع اخوتها، الملك الكامل محمد والملك الاشرف موسى، واستطاعت ان تبقي حلب بمنأى عن كل الاطماع السياسية والتوسعية لاخوتها وعرفت كيف تسخر وتوظف الظروف لبقاء المملكة امنة في وجه كل التغيرات العسكرية والسياسية التي كانت تعصف ببلاد الشام خلال فترة وصايتها وبعدها.

اهمية الموضوع:

تاتي اهمية هذه الموضوع، كونه يتصدي لدور واحدة من السياسيات الكرد في العصور الوسطى الا وهي ضيفة خاتون الايوبية سليلة البيت الايوبي في حلب، ويبرز من خلال سيرتها كيف تمكنت تلك السيدة، من تسخير كافة الجهود للمحافظة على حقوق ابنها الذي كان لايزال دون سن الرشد، دون ان تتعرض للانتهاكات غير العادلة من قبل اخوتها الذين كانوا يبتغون كل وسيلة ؛ لاضافة اماكن جديدة الى ممتلكاتهم في بلاد الشام تحديدا.

الهدف من الموضوع:

تهدف هذه الدراسة الى الوقوف بموضوعية على حالة العصر الذي كانت تعيش فيه ضيفة خاتون، والظروف التي دفعتها لتتحدى كل الصعاب في سبيل تمكين مملكة حلب على مسايرة الاوضاع المتغيرة في بلاد الشام خلال حقبة توليها الوصاية على عرش حلب.

اسئلة حول الموضوع (الاشكالية):

تم طرح عدد من الاسئلة حول الموضوع وياتي في مقدمتها:

1 – ماهي الظروف التي اهلت ضيفة خاتون لتولي الوصاية على عرش المملكة، بعد وفاة زوجها؟

2 – كيف تمكنت من ادارة المملكة، في خضم كل تلك التحديات الموجودة على الساحة الشامية؟

3 – الى اي مدى تمكنت من التاثير على من حولها من كبار المستشارين،وامراء المملكة ودفعهم لمساندة ابنها ملك حلب القاصر؟

4 – هل ساعدتها الاوضاع المستشرية في بلاد الشام،على تقديم نفسها كسياسية متمكنة في مجاراة بقية ملوك الدولة الايوبية،في الابقاء على التوازن العسكري والسياسي؟

5 – ماهي الصورة التي رسمها عنها المؤرخون من خلال انجازاتها المختلفة في مدينة حلب؟

حدود الدراسة:

تشمل الفترة التي كانت وصية على عرش حلب لحين تولي ابنها عرش المملكة، ومساهمتها في الادارة والسياسة خلال المدة (613 – 641 ه / 1215 – 1242 م).

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي – التحليلي.

خطة الدراسة:

تتالف الدراسة من مبحثين اثنين، فضلا عن المقدمة والنتائج التي تمخضت عنها الدراسة، فالمبحث الاول، يتحدث عن سيرتها و مكانتها الاجتماعية واسرتها و ثقافتها و صفاتها، مع الاشارة الى وفاتها. بينما خصص المبحث الثاني عن جهودها السياسية والادارية فضلا عن مساهمتها العمرانية والثقافية في مملكة حلب.

المبحث الأول: سيرة ضيفةخاتون الاجتماعية ومساهمتها في الحياة العامة

عرفت صاحبة الترجمة في المرويات التاريخية، بضيفة خاتون (ابن واصل: 1975، 5 / 312؛ابوالفداء: 1999، 3 / 207)، واشتهرت بكنيتها ام العزيز(الذهبي: 2003، 14 / 319 ؛ ابن كثير: 1987، 13 / 156)، واطلقت عليها عدد من الألقاب التي كانت توازي شخصيتها السياسية والإدارية والاجتماعية، مثل، الخاتون (المقريزي:1997، 1 / 415 ؛ كحالة: 1979، 2/ 339)، الصاحبة (الذهبي: 2003، 14 / 319 ؛ يوسف: 1992، ص 43)،، فضلا عن لقب خاتون الدنيا والاخرة، الى جانب لقبي، الستر الرفيع والستر العالي (الباشا: 1985، ص 266)، ناهيك عن لقب (الملكة) (ابن العديم: 1996، ص 489)، وأشار احد الباحثين الى ان اسمها عند الخزنداري هو (ضيفة الدين) (الجابري: 2021، ص 14)، وهي ابنة السلطان الملك العادل الايوبي، شقيق السلطان صلاح الدين، أي انها تنتمي الى الاسرة الايوبية (ابن خلكان: 1977، 5 / 330)، ومن ثم أصبحت تلك الاسرة دولة اشتهرت في التاريخ بالدولة الكردية الايوبية وهذه التسمية هي نسبة الى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين.

وينتمي البيت الايوبي، الى عشيرة الروادية(ابن الاثير: 1987، 10 / 15 – 16)، التي هي بطن من بطون القبيلة الهذبانية (الحنبلي: 1996، ص 56)، وان نسبهم بعض المؤرخين الى العشيرة الزرزارية(ابن كثير: د/ ت، 12 / 278 ؛ البدليسي: 1981، ل 124)، او الحميدية على سبيل الخطأ (القرماني: 1975، ص 194).

وتلك الاسرة دون ادنى شك اسرة كردية الأصل والجذور، ولايعتد بتلك الاقوال التي حاولت لسبب او لاخر، تعريبها وفصلها عن أصولها التاريخية الكردية، لان الايوبيين مثل صلاح الدين والملك العادل الايوبي، قد انكرا أي نسبة الى العرب، فضلا عن ان المؤرخ المصري المملوكي، المقريزي (ت 845 ه / 1442م)، حسم تلك التوجهات التي ارادت ورغبت ان تؤسس أصلا عربياً للايوبيين في نص قيم قال فيه: ((انه من اقوال الفقهاء الذين أرادوا التقرب منهم والحظوة لديهم)) (د/ ت، 2 / 232).

الى جانب ان بعض الامراء الايوبيين أيضا ومن اجل إضفاء نوع من القدسية والتشريف على وجودهم ضمن النطاق الاجتماعي العربي وكونهم كانوا اقلية ضمن ذلك النطاق، حاولوا ان يصبغوا سيرتهم بصبغة الانتساب الى العرب، من خلال انتحال انساب بعيدة عن الواقع ولاتؤيدها الأدلة التاريخية، وكل ذلك اتى في المرحلة التي كان الايوبيون يشعرون فيها بنوع من الضعف والاضمحلال السياسي، بعد السلاطين الايوبيين الكبار. ناهيك عن نمو قوة المماليك البحرية - وهم عناصر غير عربية في الأصل - في المجتمع الاسلامي، المصري والشامي تحديدا.

على اية حال، ولدت صاحبة الترجمة، في مدينة حلب سنة (581 ه / 1185م) (ابن العديم: 1996، ص 513)، او سنة (582 ه / 1186م)(أبو الفداء: د/ ت، 3 / 207)، وتبقى السنة الأولى هي الاصح، لاتفاق اغلب الآراء حولها (ابن العديم: 1996، ص 513 ؛ ابن واصل: 1975، 312/5 ؛ الباشا: 1985، ص 366). عندما كان والدها الملك العادل نائباً عليها من قبل أخيه السلطان صلاح الدين الايوبي حينئذ وملكا لمملكة حلب (الحنبلي: 1996، ص 283).

وكغيرها من أولاد الملوك عاشت فترة الطفولة والصبا في المدينة، ولكن عندما تم نقل والدها من قبل أخيه السلطان الى مصر سنة (582 ه / 1186م) لاتفاق تم بينهما على حسب قول ابن خلكان (1977، 5/ 74 – 75)، اخذها وبقية افراد اسرته الى هناك فعاشت حياة التنقل بين المدن منذ الصغر، بحكم طبيعة حياة والدها، العسكرية والسياسية واعتماد السلطان عليه في اغلب اعماله، فضلا عن كونه المشير الأول لاخيه في فنون القتال وأساليب الحروب وكل ما يتعلق بالدبلوماسية الايوبية، (أبو شامة: 1997، 3 / 192 ؛ العيساوي: 2016، ص 28 – 29).

مهما يكن الامر، استقر الحال بها في النهاية على العيش في مدينة دمشق، على اثر تسلطن والدها في سنة (596 ه / 1200م)، حيث انتقل من القاهرة الى دمشق، واناب عنه ابنه الملك الكامل محمد في مصر (سبط ابن الجوزي: 2013، 22 / 81). ليكون قريبا من تطور الاحداث في بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية. والمعروف انها تلقت في حلب والقاهرة ومن ثم دمشق، مايتلقاه الطفل المسلم من التربية الدينية، فضلا عن تلقيها الكثير من الرعاية والاهتمام موازنة بمايتلقاها الفرد العادي في المجتمع، كونها من بنات السلطان الملك العادل الايوبي، الرجل الأول على قمة الهرم الحياتي في بلاد الشام ومصر.

تلك المرحلة المبكرة من حياتها كانت على قدر كبير من الأهمية، على الرغم من قلة المعلومات التي تلقي الضوء على دقائق الأمور الاجتماعية التي عاشتها في حينه، الا انها لقربها من اختها غازية خاتون واخيها الملك الاشرف موسى، واختلاطها ببقية افراد اسرتها من الاخوة والاخوات، حيث اطلعت على الكثير مما كان يدور في أروقة القصر السلطاني من شؤون الحياة السياسية والإدارية والعسكرية للبلاد. فزادتها ذلك خبرة كبيرة استفادت منها فيما بعد عندما أصبحت السيدة الأولى في حلب لاحقاً.

وعلى قدر تعلق الامر بثقافتها، فالمعروف ان الاسرة الايوبية اهتمت كثيرا بالناحيتين السياسية والعسكرية، ولكنها وازنت بين ذلك الاهتمام بتلك النواحي مع التركيز على تثقيف وتعليم افرادها من الجنسين، كون ان المعرفة الى جانب التجربة السياسية والشجاعة العسكرية أصبحت من المقاييس الرئيسية لتقييم الشخصيات ولاسيما من الاسر الحاكمة.

وتاسيساً على ماسبق يمكننا الاستنتاج، بان ضيفة خاتون، قد تم توفير كل السبل الممكنة لتعليمها وتثقيفها، من قبل والدها أولا، ومن ثم هي التي اهتمت بتثقيف نفسها كما ينبغي، من خلال مخالطة وملازمة اهل الدين والصلاح والعلم. حيث دأبت على قراءة القران الكريم ودراسة علومه وعلوم الحديث، فضلا عن تشجيع نشر تلك العلوم، فقد كانت مشجعة دائما لدعوة العلماء الى بلاطها في حلب لتتفقه عليهم، مثلها مثل بقية اخوتها من ملوك بني أيوب.

وصفت بالعديد من الصفات الحسنة من قبل المؤرخين، مثل العدل والشفقة والكرم والتبرع بالهبات والصدقات (ابن واصل: 1975، 313/5)، فضلا عن انها كانت كريمة وسخية الى ابعد الحدود وتحب الخير وتتبرع وتتصدق بالاموال على الفقراء والمحتاجين والمساكين، وتمنح العلماء والمتصوفة والزهاد، ما يلزمهم من العطايا (الذهبي: 2003، 14 / 319). وليس ادل على ذلك ما نقله لنا ابن واصل من نص قيم عن تميز ضيفة خاتون عن غيرها من خاتونات عصرها بالكثير من الصفات الإنسانية التي يفتقد اليها الكثير من الناس، فقال مانصه: ((كانت عادلة في الرعية، كثيرة الاحسان والتحنن عليهم، والشفقة بهم، ازالت المظالم و المكوس في جميع بلاد حلب... ولم تزل صدقاتها دارة واحسانها واصلاً الى كل من يفد الى بابها، وماقصدها احد الا رجع مجبرا مجبوراً)) (ابن واصل: 5/1975، 313).

فيما يتعلق بسيرة ضيفة خاتون الاجتماعية، فان الباحث يجد الكثير من الغموض يكتنف مراحل حياتها المبكرة، كون ان اغلب المؤرخين تصدوا للجوانب الإدارية والسياسية في حياتها ابان حكمها كوصية لعرش حلب، مع وجود بعض الشذرات القليلة عن بعض مناحي حياتها تلك، ولكنها لاتشبع نهم الدراس لتاريخها الاجتماعي. فالمعلومات الخاصة بامها مفقودة تماما، فقد اهملت المصادر الإشارة الى اسمها، او متى تزوجها الملك العادل، وهل كانت كردية او من قومية أخرى، باعتبار ان والدها الملك العادل، قد تزوج بأكثر من امرأة، وكانت اقربهن واحبهن اليه ام الملك الصالح إسماعيل، التركية الأصل (ابن ابي اصيبعة: د/ت، ص 73). فضلا عن اننا نفتقد الى اية معلومات موثوقة عن بقية اخوتها من أمها، لان عدد اخوتها من ابيها كان سبعة عشر ابناً وعدداً من البنات (الصفدي: 2000، 169/2). ورجوعاً الى احداث حياتها، فان الباحث يستطيع الركون الى الاستنتاج، بان الملك الاشرف موسى ملك البلاد الجزرية، ودمشق لاحقاً، كان احد اخوتها من أمها ؛ لانه وفق الوقائع التاريخية، فقد كانت ضيفة خاتون كلما تقع في مشكلة او تجد نفسها في ازمة، ومن اجل مساندتها ودعمها، وحل جميع مشاكلها تلجأ الى الملك الاشرف.

يعد موضوع خطبة وزواج ضيفة خاتون، هو اكثر الموضوعات ترابطا من حيث تراتيبة الاحداث، وموثوقية المرويات التاريخية التي اشارت اليهما، فضلا عن دقة المعلومات التي وردت في تلك النصوص، فالمصادر التاريخية تشير الى ان والدها

الملك العادل زوجها من ابن عمها الملك الظاهر غازي ملك حلب، بعد وفاة زوجته غازية خاتون، اخت ضـــيفة خاتون (ابن الوردي: 1996، 2/ 168 ؛ الحنبلي: 1996، ص 283)، و ذلك في ســـنة (609 ه / 1213م) (ابن شـــداد: 1991، 1/1 /88 ؛ القضـاة: 2007، ص 44)، وكان الدافع السياسـي وراء ذلك الزواج بالمرتبة الأولى، قبل ان يكون اجتماعيا اسـرياً ؛ حتى لاتنتقل ملكية مدينة حلب الى سلالة من غير البيت العادلي (ابن كثير: 1988، 13 / 71).

وعن خطبة ضـيفة خاتون، يقول المقريزي في حوادث سـنة (609 ه / 1213م) مانصـه: ((وفيها قدم ابن شـداد من حلب الى دمشق بمال كثير وخلع، برسم عقد نكاح صفية خاتون (يسميها المصنف صفية وليست ضيفة)، ابنة العادل على ابن عمها الظاهر صاحب حلب، فخرج الى لقائه عامة الامراء والاعيان، وعقد النكاح في المحرم على مبلغ خمسين الف دينار، ونثر النثار على من حضـر بقلعة دمشق)) (1997: 1/ 245). والصـداق الذي حدد لها بموجب عقد الزواج كان يعد من الصـداقات الموصـوفة بالعالية في تاريخ الدولة الايوبية (القضاة: 2007، ص 39).

وذكر ابن العديم في حوادث السـنة نفسـها، ان الملكة الايوبية ضـيفة خاتون تم ارسـالها من مصـر (والاصـح انها كانت في دمشق) من قبل والدها الملك العادل الى مدينة حلب مع شمس الدين التبني الذي وكله في التزويج بابن أخيه الملك الظاهر. وخرج الأخير من حلب للقائها في تل السـلطان ((واحتفل باللقاء وبالغ في العطاء، ووصـلت حلب في النصـف من محرم)) (1996: ص 451).

بينما وصف ابن الفرات قدومها الى حلب بالتجمل العظيم، وبان مجيئها كان من الأيام المشهودة في المدينة،فذكر قائلاً: ((وفي هذا الشـهر (المحرم) سـرحت الخاتون للمسير الى حلب، فوصـلت اليها في تجمل عظيم،وتلقاها الملك الظاهر ـــ في امراء حلب ومعمميها واكابرها،وكان دخولها القلعة، يوماً مشـهودا. وقدم معها من القماش والالات، وأنواع المصـاع، مايحمله خمسـون بغلة ومائة... (بختي) وثلثمائة جمل. ومن أنواع الجواري والوصـــائف والاماء والحرائر، في المحامل والنجاوات مايحملن مائة جمل. وذكر انه كان في خدمتها مائة جارية، كلهن مطربات، يلعبن بانواع الملاهي، ومائة جارية كلهن يعملن أنواع الصـــنائع البديعة... ان الملك الظاهر لما دخلت عليه، مشـــى لها عدة خطوات، واحترمها احتراما عظيما، وقدم خمســـة عقود جوهر، قيمتها مائة الف وخمسون الف درهم، وعصـابة جوهرة ليس لها نظير، وعشر قلائد من العنبر المذهب، وخمساً غير مذهبة، ومائة وسبعين قطعة من الذهب والفضة... وعشرين جارية وعشرة خدم)) (1970: 5/1/ 126 – 127).

وبعد سـنة من الزواج انجبت له ولدا سـماه الملك العزيز محمد، وجعله ولي عهده متخطياً ابن الأكبر الملك الصـــالح احمد - الذي لم تكن امه من الاسرة الايوبية - وذلك لان الأصغر كان حفيد الملك العادل الايوبي سلطان البلاد، الذي منح مباركته لمرسوم ولاية العهد تلك (ابن الاثير: 1982، 12 / 313 – 314).

سـاهمت الملكة ضـيفة خاتون في تطوير الحركة العمرانية والعلمية معا من خلال جهودها في بناء بعض الخوانق والمدراس في مدينة حلب، فقد ذكر ابن شداد عند الحديث عن الخانقاهات التي تم تاسيسها داخل حلب، بان واحدة من تلك الخوانق المعروفة، بنتها الملكة ضـيفة خاتون بنت الملك العادل، داخل باب أربعين، مقابل مسـجد الشـيخ الحافظ عبدالرحمن بن الأسـتاذ، والى جانب تلك الخانقاه (1991، 1/1 /237)، أنشـأت مدرسـة أصـبحت فيما بعد على قدر كبير من الشـهرة، عرفت بمدرسـة الفردوس (ابن شداد: 1991، 261/1/3 ؛ سلطان واحمد: 2008، ص 208 ؛ داوي: 2023، ص 349)، وكانت اشبه بمجمع علمي تضم زاوية وخانقاه وتربة ورباطا وعن تلك المدرسـة ينقل لنا المؤرخ المعاصـر للاحداث ابن شـداد نصـا على جانب كبير من الأهمية تؤكد بنائها من قبل ضيفة خاتون، فضـلا عن الإشارة الى اقسام تلك المدرسـة، ومن تم جذبهم اليها في سبيل نشر العلم والمعرفة، فقال مانصـه: ((انشـاتها الصـاحبة الملكة ضـيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين ابي بكر محمد بن أيوب، وهي جليلة القدر كبيرة، وجعلتها تربة ومدرسـة ورباطاً، ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء والصـوفيةوالعلماء لتدريس الطلبة(الحلبي:1988، 2/ 213؛ علي: 1969، 106/6)، وأول من درس فيها شمس الدين احمد بن الزبير الخابوري ـــ ولم يزل بها الى عصرنا، وهو سنة ثلاث وسبعين وستمائة (1374م))) (1991، 1/1 / 261 – 262).

وقد وصـفت سـناء القضـاة مخطط المدرسـة ؛ بانها كانت عظيمة البناء ومرتفعة الاعمدة وقد بنيت بالحجارة الرملية، وتضـم عدة ابنية او اقسام فرعية، فضـلا عن وجود سرداب فيها كان يستخدم كمدفن، كما ان المدرسة احتوت على بركة كبيرة من الماء للاسـتفادة من مياهها في الشـرب وسـقي المزروعات في البسـتان الملحق بالمدرسـة وهناك العديد من الاعمدة الرخامية داخل المدرسـة،مع وجود ايوان كبير فيها، كما ان المدرسـة كانت مزدانة بالعديد من الشـبابيك التي اطرت جهاتها الأربع باطار جميل وبراق. لتطل على المناظر الخلابة الموجودة في بستان المدرسة (2007،ص 189)، وذكر احد المؤرخين ؛ بان ضيفة خاتون قد وقفت عليها بعض الأوقاف مثل قرية كفر زيتا (تتبع اعمال حماة) وحوالي الثلثين من إيرادات طاحونتها، وأشـــار الى ان جدران الايوان الكبير كانت تحوي العديد من الابيات الشـعرية (الحلبي: 1996، 1/ 323 - 324). ودون بقية المؤرخين فقد انفرد الحلبي بالإشـارة الى نص محفور على احد أبواب المدرسـة، يؤكد فيه على قيام الملكة ضـيفة خاتون الايوبية ببناء ذلك الباب، ويبدو انه

كان احد الأبواب الرئيسية فيها كون ان حديثه ورؤيته العيانية تندرج ضمن النص الخاص بمدرسة الفردوس، فنقل ما شاهده عياناً بقوله: ((امر بانشائه ضيفة خاتون، في أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن السلطان الظاهر غازي، بتولي عبدالمحسن العزيزي الناصري، في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة)) (1996: 1/ 325).

وبعد ان عاشت مايقارب الاحدى والثلاثين عاماً في مدينة حلب، وعلى اثر مرض عضال الم بها، توفيت الملكة ضيفة خاتون في قلعة حلب وذلك في سنة (640 ه / 1242م).وقد بلغت التاسعة والخمسين من العمر (ابن الوردي: 1996، 2/ 168)، وقد توهم ابن فضل الله العمري، عندما ذكر بانها توفيت وكان لها من العمر واحد وستين عاماً (2010: 27 / 212)، حكمت حلب كوصية ومنفردة بالحكم لمدة ست سنوات (الحنبلي: 1996، ص 283)، ابان وصايتها على حفيدها الملك الناصر يوسف بن العزيز، ولما توفيت كان عمر حفيدها الناصر يوسف الثالثة عشر سنة تقريبا (أبو الفداء: د/ت، 3/ 208)، بعد ان جاهدت وحملت على عاتقها الكثير من المهام الإدارية والسياسية، بغية الإبقاء على حلب كما كانت في عهد زوجها وابنها الملك العزيز مضاهية لدمشق في تطورها(اميدي: 1999م، ص 30)، وقد نجحت في مهمتها تلك بمساندة الصلحاء من كبار رجال السياسة والجيش والعلماء الحلبيين.

المبحث الثاني: ضيفة خاتون وجهودها الإدارية والسياسية

1 – 1 دورها في مرحلة ولاية العهد والوصاية:

تعد مسالة ولاية العهد في العصر الايوبي من المسائل الشائكة، بسبب تدخل المصالح السياسية، والاجتماعية في تحديد ولي العهد، فمن اجل الحفاظ على بعض المصالح السياسية والعسكرية، لم يكن السلطان او الملك الايوبي يال جهدا في تعيين بعض أبنائه ولياً للعهد، ومن ثم استبداله باخر، اذا اقتضت المصلحة الخاصة للاسرة، وفي احايين أخرى، كان تعيين ولي العهد واستبداله، يرتبط بتدخل الخاتونات الايوبيات من زوجات السلطان او زوجات الملوك الايوبيين، ولاسيما ان كانت الزوجة من الاسرة نفسها، وتحديدا ابنة السلطان او اخت احد الملوك، والأخر من المرشحين لولاية العهد امه ليست من الاسرة الحاكمة، او من قومية أخرى.

واستنادا الى تلك المعطيات السائدة في البلاط الايوبي، ولاسيما مايتعلق باختيار ولي العهد، فان مدينة حلب لم تكن بمنأى عن الدخول في حسابات التعيين والاستبدال، حسب الضرورة الانية لترشيح من سيخلف الملك عند وفاته. ويعد ابوشامة من اوائل مَن اشار الى وصية الملك الظاهر غازي قبل وفاته، بمن سيخلفه في حكم المملكة، ففي حوادث سنة (613 ه / 1217م)، عند الحديث عن وفاته، تطرق الى وصيته التي كتبها قبل وفاته بعدة أيام فذكر قائلاً: ((ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأصغر محمد ؛ لانه من بنت عمه العادل، وطلب بذلك ان يستمر الامر له لاجل جده العادل، واخواله، وأولاده، لانهم ملوك البلاد يومئذ، وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر احمد، ثم بعده للمنصور محمد ابن أخيه العزيز عثمان صلاح الدين الذي كان ابوه أوصى له بالملك فلم يتم العادل له ذلك. وكان العادل قد زوجه ابنته، وفوض ولاية القلعة الى خادم ابيض يعرف بشهاب الدين طغريل كان وصل الى خدمته من بلاد الروم، وكان مشتهراً بالزهد فصار له عنده مكانة)) (1974: 94). ولما توفي الظاهر غازي، لم يكن عمر العزيز سوى سنتين وبضعة اشهر، ويشير سبط ابن الجوزي الى ان طغريل دبر امر المملكة وامور الملك الصبي، باحسن صورة، وحفظ حلب وعمالها بحسن تدبيره. (2013: 22/ 214).

في حين ذكر ابن كثير، بانه أوصى بالمُلك لابنه العزيز الذي كان عمره وقت وفاة والده ثلاث سنين، ومع انه كان لديه أبناء كباراً، الا انه عهد الى اصغر أبنائه، لانه كان ابن بنت العادل، واخواله هم، الكامل والاشرف والمعظم، وقد نحى ذلك المنحى في التوصية ؛ لان الملك العادل جد العزيز واخواله المذكورين لن ينازعونه في سلطته(1987: 13 / 77 – 78)، لانه في حال قيامه بتولية العهد لاحد اخر من أبنائه الذين لاينتمون للبيت الايوبي، فانه لن يأمن منافسته ومنازعته على المُلك من قبل عمه وأبناء عمه العادل. لذلك وافق العادل الايوبي وابنائه الملوك على تولية الملك العزيز محمد لولاية العهد ومن ثم حكم المملكة.

ويشير ابوالفداء الايوبي، انه بعد كتابة تلك الوصية، فقد حلف جميع كبار المملكة على ذلك من الامراء وقادة الجيش وكبار الفقهاء والمعممين، واسند تدبير ذلك في التصرف بالاموال والتحكم بالقلاع الى شهاب الدين طغريل (ت 631 ه / 1233م)، السابق ذكره. ووكل اليه معظم أمور الدولة الحلبية. (1999: ص 146). لكن الذي يهمنا من كل ذلك هو دور ضيفة خاتون في تدبير أمور المملكة، وبهذا الصدد لاننسى انه في مرحلة حكم الملك الظاهر غازي، كان هو الشخصية الأولى في قيادة الدولة، كونه ابن السلطان المؤسس صلاح الدين، وملك حلب،فضلا عن الخصائص التي كان يتميز بها من الشجاعة والذكاء والقوة، وحسن السياسة والدبلوماسية التي عرف بها وهو الذي وصفه ابن فضل الله العمري بالقول: ((هو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي، وكان ذكياً فطناً)) (2010: 27 / 140)، أي بوجود كل تلك الخصال القيادية في شخصيته كان من الصعب، على ضيفة خاتون في المدة التي عاشرته كزوجة (بقيت معه حوالي اربع سنوات فقط)،وام لولي العهد الجديد، ان تجد دورها الإداري والسياسي كما ينبغي، وان كانت لها مساهمات اجتماعية وخيرية على صعيد عال في مملكة حلب.

واستنادا الى روايتين للنويري، يفهم من كلامه في الأولى منهما، بان الملكة ضيفة خاتون بعد وفاة زوجها، تسلمت أمور حلب وقامت بتدبير الدولة، وهي التي نصبت شهاب الدين طغريل في اتابكية حلب. (2004: 29 / 48) وفي الرواية الثانية يؤكد على ذلك مرة أخرى وان حفظ ملك حلب كان بسببها وسبب ابنها وحفيدها (2004: 29 / 195).

ويمكن للباحث ان يوفق بين تلك الروايات التي ذهبت الى ان الملك الظاهر غازي هو الذي أوصى باتابكية شهاب الدين طغريل وفوضه القيام بامر المملكة بعد وفاته، كون انه ماكان سيوصي بذلك الامر الهام لولا موافقة او مشورة ضيفة خاتون، باعتبار ان الظاهر غازي، كان يعلم تماما ان أي بند في الوصية لايلائم الملكة ضيفة خاتون، ولايتوافق مع مخططات والدها السلطان الملك العادل او اخوتها من الملوك فلن يستقيم الامر بمملكته، لذلك لايستبعد انه قد حصل على موافقة عمه العادل وبمشورة الملكة ضيفة خاتون تم كتابة وصيته المذكورة. واعتمادا على رواية للداواداري، يبدو ان بعض اخوة الملك المتوفى، حاولوا منازعة ابن اخيهم على مسالة تولية ابن ضيفة خاتون ولياً للعهد وهو اصغر من أخيه الأكبر بعشر سنوات تقريباً، لكن تلك المطالبات لم تاتي باية نتائج إيجابية، ((وآخر الامر استقر الحال خشية من جده الملك العادل الكبير)) (1972: 186/7). واشار الذهبي الى ذلك بقوله: ((واقر الملك العادل ذلك، (أي تولية الملك العزيز حفيده ولياً للعهد وتوكيل طغريل اتابكاً له)،وامضاه لاجل الصاحبة والدة العزيز ؛ لانها بنت العادل، وكانت هي الكل الا ان اشتد (أي بلغ سن الرشد))) (1988: 46 / 216)

ومع ذلك تؤكد النصوص التاريخية على ان دور ضيفة خاتون لم يكن كبيراً في فترة الوصاية على ابنها الملك العزيز (الجابري: 2021، ص 23)، وان كان ابن العميد يرى بان دورها كان كبيرا في تلك المرحلة أيضا (د:ت، ص 32)، بل يبدو انها أيضا منحت ثقتها التامة للاتابك طغريل الذي كان قدر كبير من الحلم والنزاهة والولاء لاسرة الملك الظاهر. بل حافظت على مكانتها كملكة تُستشار في الأمور التي كانت تحتاج الى مشورتها وام للملك الجديد، الذي كان قد تزوج من ابنة خاله السلطان الملك الكامل محمد (فاطمة خاتون) (ابن واصل: 1977، 5/ 118 ؛عيسى:1999، ص 37). مما قوي مركزه بين امراء وملوك الدولة الايوبية.

في سنة (629 ه / 1231م) توج العزيز محمد ملكا شرعيا لمملكة حلب، لكن لم يدم به الامر في الحكم سوى خمسة أعوام، فقد توفي في سنة (634 ه / 1236م)، تاركاً وراءه صبياً لايتجاوز عمره التسعة أعوام وريثاً له، في وصاية جدته ضيفة خاتون، حيث قامت بتدبير أمور المملكة خير قيام و ادارت الحكم بمساعدة بعض المستشارين على افضل صورة (ابن واصل: 1977، 5 / 119).

تعد المدة الزمنية التي حكمت فيها بصورة مباشرة تقريباً من سنة (634 ه / 1236م) الى سنة وفاتها (640 ه / 1242م)، من الفترات المزدهرة في تاريخ حلب، فعلى الرغم من كونها امرأة لكنها قامت باعبائها السياسية والإدارية على اكمل وجه، حتى انه قيل عن ادارتها لمدينة حلب بانها ((تصرفت تصرف السلاطين)) (ابن فضل الله العمري، 2010: 27 / 212، وعلى الباحث في تاريخ هذه المراة الكردية الايوبية، ان لاينسى بان وجود اخوانها على راس السلطة الايوبية، وحواليها معظم أبناء اخواتها وأبناء عمومتها - كلهم ان لم يكن في بعض الظروف – دعموا سياستها وساندوها في قراراتها، عوضا عن احاطتها بالعديد من المستشارين السياسيين والعسكريين والاداريين على مستوى عال من الكفاءة، قد ساعدها كثيرا على السير قُدما في إدارة مملكة حلب، ولاسيما في وقت كانت التجاذبات السياسية والعسكرية على اشدها في الدولة الايوبية.

وليس ادل على انها أصبحت المرجع الأول والأخير في اتخاذ القرارات المهمة في المملكة بعد وفاة ابنها الملك العزيز وعقد الوصاية لابنه الملك الناصر يوسف، ما ذكره ابن واصل، انه بعد رحيل الملك العزيز تم انشاء مجلس رئاسي او مجلس شورى لادارة الأمور في حلب، تالف من الاميرين، شمس الدين لؤلؤ الاميني (ت 648 ه / 1250 م)، وعزالدين عمر بن مجلي، والوزير القاضي جمال الدين القفطي (ت 646 ه / 1248م)، فضلا عن الأمير جمال الدولة اقبال الخاتوني، يحضر معهم الاجتماعات التي يحتاج الامر فيها الى المشاورة والمناقشة، وبعد ان تنتهي المداولات بينهم، فان الأمير الخاتوني، هو الذي ينقل الاخبار وما اتفقت عليه الآراء الى الملكة ضيفة خاتون، وهي التي ستقرر ما يجب اتباعه او التغاضي عنه من تلك الآراء التي توصل اليها مجلس الشورى الحلبي، فضلا عن ان تصديق كل القرارات والتوقيع على المكاتبات الرسمية تعود اليها وحدها، وجميع الأمور منوطة بشخصها. (1975: 5 / 119)، وكانت تخاطب بلقب ((الستر العالي الخاتوني، والدة الملك العزيز)) (ابن العديم: 1996، ص 487).

1 – 2 ادارتها لحلب وعلاقتها بالاسرة الايوبية:

على وجه العموم كانت العلاقة بين الملكة ضيفة خاتون الايوبية، وبقية ملوك وامراء البيت الايوبي، ودية وحسنة، مادامت توجهات اؤلئك الملوك والامراء غير توسعية او عدائية تجاه حلب، وكلما احست بان هناك تجاوزا او اطماعا سياسية او عسكرية تجاه مملكتها من قبل السلطان الايوبي او أي ملك من تلك الاسرة، فانها كانت تقف بالضد من تلك التوجهات، وتدافع عن حقوق حفيدها ولي عهد المملكة وعن حقوق المدينة واعمالها بكل ما اوتيت من دهاء وذكاء ودبلوماسية.

بعد وفاة الملك العادل الايوبي في سنة (615 ه / 1218م)، و تسلم الملك الكامل محمد لسلطنة الدولة الايوبية، حتى ظهرت اطماعه المخفية تدريجياً تجاه حلب، بان زوج ابنته فاطمة خاتون من الملك العزيز ملك حلب، واراد ان يستميله الى جانبه ضد التحالفات الاسرية التي كانت تحاك في السر والعلن بينه وبين اخويه، المعظم عيسى والاشرف موسى (ابن واصل: 1977، 5/ 120 – 125) ؛ ولكن القدر لم يمهله لتوظيف العزيز لخدمته وادخاله في حلفه المحدود ضد بقية التوجهات غير الراضية على بعض سياساته إزاء الممالك والامارات الايوبية المنتشرة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، حيث توفي عزيز حلب في سنة (634 ه / 1236م)، وأصبحت ضيفة خاتون والدته هي الوصية على ولده الملك الناصر يوسف والمدبرة لامر حلب بعده (القلقشندي: د/ت، 2/ 83).

لكن يبدو ان السلطان الملك الكامل، لم ترق له تلك التغييرات التي حدثت في حلب ولم يكن ميالا الى عقد الولاية للملك الناصر يوسف،لانه عندما توجه وفد حلبي الى القاهرة في السنة نفسها، واديا الرسالة الى السلطان الملك الكامل، اظهر الحزن لموته، لكنه قصر في الترحيب باعضاء الوفد واكرامهم كما ينبغي، وفي الوقت نفسه حلف للملك الناصر ابن العزيز بالصيغة المتعارف عليها بينهم، لكن ماعكر الود بين مملكة حلب والقاهرة، انه أشار على الوفد بان يكون الملك الصالح احمد ابن الملك الظاهر غازي الأكبر، هو مقدم العسكر الحلبي، وان يعهد اليه مسالة تربية الملك الناصر يوسف (ابن واصل: 1977، 5 / 120). وعلل احد الباحثين ؛ بان سبب دعم السلطان الكامل، للصالح احمد الابن الأكبر لسلطان حلب المتوفى،هو ان الأخير تزوج ارملة أخيه فاطمة خاتون ابنة الكامل بعد وفاة زوجها العزيز ابن الظاهر غازي (عيسى:1999، ص 37).وهذا ما دفع بالكامل محمد الى الرغبة في ان يكون له دور (أي لصهره الجديد) في التغييرات السياسية الحلبية القادمة.

لكن هذه المقترحات الكاملية لم تعجب ضيفة خاتون، بل ردتها، وازداد الامر سوءا بينها وبين اخيها الكامل محمد، لما ارسل بعض الهدايا للملك الناصر وبعضها للملك الصالح أخيه الأكبر امير عينتاب، وكانت الهدايا المرسلة الى الملك الناصر دون مقامه العالي، وفيها تصغير لشانه موازنة بما أرسلها لاخيه الصالح، فغضبت الملكة ضيفة خاتون لذلك التصرف المشكوك فيه من قبل السلطان الملك الكامل، فازدادت الوحشة بين الجانبين (ابن واصل: 1977، 120/5).

وعندما حاول الملك الكامل ان يضيق الخناق على أخيه الملك الاشرف ويقلص من ممتلكاته في إقليم الجزيرة الفراتية التي استبدلها معه بدمشق، كان على الملك الاشرف ان يقوم باستضافته كلما اتى الى دمشق او عبر فيها بطريقه الى أماكن أخرى، مما اثقل ذلك كاهل الاشرف ودفعه الى الاتصال ببقية ملوك ال أيوب، مثل أصحاب حماة وحمص، من اجل الوقوف بوجه تطلعات وطموحات السلطان الملك الكامل التي كانت موجهة ضدهم جميعا تقريباً (ابن واصل: 1975، 5 / 123؛الدواداري:1972، 318/7). وفي الوقت نفسه ارسل الاشرف الايوبي الى اخته ملكة حلب ضيفة خاتون، وبقية الامراء الحلبيين للحصول على دعمهم، اذا ماواجهوا السلطان الكامل، وخوفوا الخاتون وامراء المملكة من من تطلعاته التوسعية، وان حلب لن تكون بعيدة عن مخططاته، فوافقوا على الانضمام الي الحلف المذكور. ولم يكتفوا بذلك بل ادخلوا في حلفهم سلاجقة الروم حيث وافق السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ (634 – 644 ه / 1237 – 1246 م) على الانضمام اليهم (ابن واصل: 1977، 5/ 124).

بعد ان اتفق الجميع على مناوأة الملك الكامل ودفع اذاه عن بلاد الشام وممتلكاتهم فيها، ارسلوا وفداً الى القاهرة حاملين راسلة شديدة اللهجة اليه جاء فيها: ((اننا قد اتفقنا كلنا، ونطلب منك انك لاتعود تخرج من مصر، ولاتنزل الى الشام، فقال لهم، مبارك، انتم قد اتفقتم، فما تطلبون من يميني، احلفوا انتم أيضا لي، ان لاتقصدوا بلادي، ولاتتعرضوا لشيء مما في يدي وانا اوافقكم على ماتطلبون)) (ابن العديم: 1996، ص ص 488 – 489). وفي اطار تلك التوقعات التحالفية توقفت المبادرات الاسرية بين ملوك بني أيوب مؤقتا بسبب بعض الاحداث الطارئة التي ستطرا على الساحة الشامية والمصرية، بحيث ستتغير الكثير من المواقف حسب الظروف والمصالح.

يبدو ان الملكة ضيفة خاتون لم تكن تنتهي من مشكلة حتى تصادفها أخرى ابان وصايتها وحكمها لحلب، كما حدث في السنة نفسها، عندما حاول امير شيزر شهاب الدين يوسف بن عزالدين مسعود من احفاد ابن الداية سابق الدين عثمان، بالاتفاق مع كمال الدين عمر بن العجمي، على استمالة الملك الاشرف الايوبي الى جانبهما والوقوف ضد ملكة حلب وانتزاع المملكة من الحلبيين، حيث ارسلوا اليه رسولا يدعى العز الاطفاني، للغرض المذكور، واوهموا الملك الاشرف في رسالتهما الى ان معظم امراء حلب وكبار رجالاتها يتفقون معهم، فضلا عن الكثير من أقارب الاشرف من الايوبيين يشايعونهم على خطتهم بتغيير الحكم في حلب، بشرط ان يوليه قضاء المملكة(ابن واصل: 1977، 5/ 128).

على اية حال استمع الاشرف لرسولهم وعلم نواياهم والاهداف التي يرومون بالوصول اليها، لكنه ردهم على اعقابهم واجباهم إجابة قاطعة ((لاتتصور ان يبدر مني غدر ولاقبيح في حق احد من ذرية الملك الظاهر)) (ابن العديم: 1996، ص 489).

عرفت الملكة ضيفة خاتون وامراء حلب، بتلك الخطة المدبرة للتامر عليها وازاحتها عن عرش حلب وابعاد حفيدها عن حقه الشرعي في السلطنة، فاخذوا الاحتياطات اللازمة للقبض على الرسول الذي كان قد بعث الى الملك الاشرف بدمشق، فتم اعتقاله

عندما وصل حلب ليوصل جواب الملك الاشرف الى ابن العجمي، فحبس الرسول بالقعة، واستخرجوا منه تفاصيل الخطة التامرية، ثم حلقت لحيته، وسير الى دربساك ليسجن هناك. بينما صدر الامر في الوقت نفسه باعتقال كل من امير شيزر شهاب الدين، والكاتب ابن العجمي، حيث حبسا في سجن القلعة، وتم مصادرة أموال امير شيزر، بينما لم تصادر ممتلكات واموال ابن العجمي، تطييبا لقلوب اسرته، وبقي الاثنان في الحبس الى وفاة السلطان الملك الكامل الايوبي سنة (635ه / 1237م)، حيث تم اطلاق سراحهما (ابن واصل: 1977، 5/ 129 - 130)

ومن حسن سياستها وقيادتها الحكيمة لادارة الدولة، هي كيفية تعاملها مع كل الظروف سواء اكانت سلبية ام إيجابية، ومن خلال خبرتها بالامور عرفت كيف توازن بين الأقطاب المتعددة في الدولة الايوبية، وتحافظ على كيان دولتها بقوة، بل وجعلت لمملكة حلب هيبة عند بقية المكونات السياسية على الساحة الشامية. ففي السنة التي توفي فيها السلطان الكبير، ارسل ولده السلطان الملك العادل الذي تبوأ السلطنة مكانه، وفدا الى حلب على امل التصالح مع عمته الملكة، لكنها ردت الوفد دون ان اية إجابات حول نتيجة سفارتهم اليها، فعاد الوفد خائبا الى مصر (ابن واصل: 1977، 5/ 179).

استغلت الملكة ضيفة خاتون وفاة اخيها السلطان الكامل، واردت ان توجه ضربة عسكرية سريعة لمملكة حماة التي كانت تساند السلطان المتوفى، فقدمت ضيفة خاتون على جيوش حلب الملك المعظم فخرالدين توران شاه ابن صلاح الدين (ت 648 ه / 1250م) وامرته بقيادة العساكر للاستيلاء على قلعة المعرة التي كانت داخلة ضمن اعمال حماة. فتمكنت القوات الحلبية من الاستيلاء على المعرة، ومن ثم حاصروا قلعتها، وبعد مدة يسيرة من الحصار ورميها بالمجانيق، لم يجد قادة القلعة سوى الإذعان لقوة المحاصرين، فطلبوا الأمان وسلموا اليهم القلعة بما فيها، ثم هاجمت تلك القوات مدينة حماة نفسها وضيقوا الخناق على الملك المظفر صاحبها، واستولى الحلبيون على الكثير من الممتلكات الحموية خارج المدينة ومنعوا وصول الامدادات اليها(ابن واصل: 1977، 5/ 181 - 182).

ويذكر ابن العديم، ((ولم تكن الملكة خاتون تُؤثر أخذها من ابن اختها، وانما ارادت التضييق عليه، لينزل عن طلب معرة النعمان)) (1996: 498)، في حين أشار ابن أوصل، انما هي ضيقت عليه، لتعرفه الخطأ الذي ارتكبه عندما انضم الى جانب السلطان الملك الكامل وعادى بقية امراء الشام من اهل بيته من الايوبيين، وكان على راسها مملكة حلب وخالته الملكة ضيفة خاتون. لذلك لم ترد الملكة الخاتون ان، يستمر الجيش في حصار حماة كثيرا، بل استدعته لترك الحصار والعودة الى حلب وكان ذلك في سنة (636 ه / 1238م)،(1977، 5/ 182) ومما يدل على سياستها اللينة تجاه حماة، وان الحصار كان ناعماً انها نهت عساكر حلب عن استخدام سلاح المنجنيق في ضرب اسوار المدينة لكي لاتتعرض مملكة قريبها للتخريب والهدم(ابن واصل: 1977، 5/ 182)، او ان يتاذى أهلها جراء هجمات الجيش الحلبي.

ومما يعكس سياستها التناغمية تجاه الامراء من الاسرة الايوبية، مافعلته تجاه ابن اخيها الملك الصالح نجم الدين أيوب، عندما نازعته القوات الخوارزمية المرتزقة على مملكته، واستولوا على الكثير مما كان تحت يده من المناطق ن فهرب منهم، وبعدها حاول السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو، بضم بعض المدن التابعة له الى مملكته، ومن ثم وزيع بقية ممتلكاته على بعض الامراء الايوبيين، وكانت منها حلب، فارسل اليها الملك الصالح نجم الدين رسالة أبدى فيها رغبته بان تتسلم عمته الملكة تلك المناطق التي حددت لها من قبل السلطان السلجوقي، وقال لها: ((البلاد كلها بحكمك، وان شئت ارسال نائب يتسلم هذه البلاد، وغيرها، فارسليه لاسلم اليه ما تأمرين بتسليمه)) (ابن العديم: 1996، ص 497)، لكنها لم تر ان تضايق ابن اخيها في البلاد، ولم تتعرض لشيء منها، وعندما طلب منها ان تتسلم تلك المناطق، ((فشكرته وطيبت قلبه)) (ابن العديم: 1996، ص 497).

وحاولت دائما ان تكون محور التوازن والتهدئة بين ملوك وامراء الدولة الايوبية، بدليل ما ذكره ابن العديم، في حوادث سنة (638 ه / 1240م)، لما حاولت قوات المرتزقة الخوارزمية ان يوسعوا من رقعة ممتلكاتهم، فتعدوا اكثر من مرة على اعمال قلعة جعبر التي كانت تابعة للملك الايوبي (الحافظ أرسلان ابن الملك العادل) يداري تجاوزاتهم العسكرية على ممتلكاته، ببذل الاموال لهم في كل مرة، فازدادوا طمعاً، وفي الوقت نفسه تعرض لشلل في جسمه، فتوجس خيفة من ولده. وعلى اغلب الظن انه خاف منه لسببين اما ان يستولي على مملكته وهو في تلك الحالة المرضية الصعبة، او ان يتحالف مع الخوارزمية، ويتفق معهم على ابيه، لمساعدته في الاستيلاء على السلطة ن لقاء بعض الامتيازات التي كانوا سيحصلون عليها اذا ماتحقق الاتفاق المنشود. وابان تلك التطورات اتصل ملك جعبر باخته ضيفة خاتون وطلب منها ان يستبدل معه كل من جعبر وبالس بمدينة او قلعة أخرى لاتقل أهميتها عن مقاطعاته المذكورة، وتكون قريبة من حلب، ليامن جانب الخوارزمية وغيرهم، فاستبدلته ضيفة خاتون بعزاز، فارسلت الملكة الحلبية من استلم قلعة جعبر في الشهر الثاني من السنة نفسها. فوصل اخوها الحافظ أرسلان الى حلب، فاكرمته اخته وافردت له دارا للإقامة فيها، وسلمت عزاز الى نوابه.(1996: ص 501).

الخاتمة:

1 – اثبتت الدراسة ان الجو العام كان مهيئاً لبروز ضيفة خاتون كامراة على قدر كبير من الدهاء السياسي والفكر الدبلوماسي، ولاسيما انها عاشت في اسرة كل رجلاتها كانوا اما سلاطينا او ملوكا او امراءً كبار في الدولة الايوبية، ويكفي انها كانت ابنة اخ السلطان صلاح الدين وابنة أخيه السلطان الملك العادل الايوبي. ومن خلافل معايشتها لهم نمت خبراتها السياسية والدبلوماسية والثقافية اكثر فاكثر.

2 – تبين من خلال الدراسة ان ضيفة خاتون قد حازت الكثير من الاهتمام داخل الاسرة العادلية من خلال توفير كل قنوات ومستلزمات العلم والمعرفة، فدرست الفقه والحديث وعلوم القران، ونبغت فيها مما شجعها ذلك على ان تهتم هي بدورها بعد ذلك بالعلم والعلماء وان تقربهم الى بلاطها الحلبي، مما اضفى المزيد من الخصوصية الثقافية على مدينة حلب في عهدوصايتها على الملك الناصر يوسف. وان تنافس حلب باعلامها في الادب والحديث والتاريخ والفقه بقية المدن الشامية ولاسيما دمشق.

3 – اكدت الدراسة على ان ضيفة خاتون الملكة الكردية – الايوبية، كانت من النساء القلائل في العصر الوسيط – الحقبة الإسلامية – التي قادت العديد من الملوك والامراء وكبار رجالات الدولة في عهدها، فضلا عن ادارتها الناجحة لمملكة حلب ابان المدة من (634 – 640ه / 1236 – 1244 م)، بحيث جعل لحلب مكانة كبيرة بين بقية ممالك الدولة الايوبية الأخرى، ونافست كل من اخويها الملك الكامل الايوبي والاشرف الايوبي في القيادة والإدارة، وتمكنت من إبقاء حلب دائما في الصدارة من حيث عقد الهدن والاتفاقيات والتحالفات الداخلية والخارجية.

4 – ظهرت من خلال الدراسة قدرتها الواضحة على حفظ حلب من كل الاطماع الداخلية من قبل اخوتها من السلاطين والملوك الايوبيين الاخرين ـــ وسوست الأمور باجابية كبيرة وحافظت على سياسة توازن القوى مع الجميع، ولم تكن تخطو اية خطوة الا ان كانت لحلب استفادة حقيقية فيها. وتعد حقبة وصايتها الأولى على المك العزيز بمثابة مرحلة تعريفية بالسياسة ودبلوماسية الدولة الايوبية، والمملكة الحلبية على وجه الخصوص، فقد استفادت كثيرا من وجود عدد لاباس بهم من المستشارين المشهود لهم بالخبرة والإخلاص والشجاعة، من أمثال: القاضي بهاء الدين ابن شداد، والاتابك شهاب الدين طغريل الرومي و الأمير جمال الدولة اقبال الخاتوني ولما انفردت بالوصاية في عهد حفيدها الملك الناصر يوسف، ادارت البلاد بخيرة ومعرفة مسبقة، ولم تكن المشورة عندها نافقة، بل كانت دائمة التشاور مع بقية قادتها ووزراء حلب، من اجل بقاء المملكة قوية كما كانت في عهد زوجها الملك الظاهر غازي.

5 – اسفرت الدراسة عن ان اهتماماتها لم تكن تتركز فقط على إدارة البلاد من الناحية السياسة وتوجيه قادتها الوجهة الصحية أيام المعارك والنزاعات الداخلية، بل كانت لها اهتمامات عمرانية واجتماعية واقتصادية وخيرية متنوعة، فقد بنت العديد من المرافق والمؤسسات العلمية والخيرية، مثل: مدرسة الفردوس حيث كانت تمثل مجمعا علميا واداريا ووقفيا كبيرا. احضرت خيرة العلماء والفقهاء للتدريس في تلك المدرسة، فضلا عن انها أوقفت الكثير من الأوقاف عليها لتصرف من وارداتها على المدرسين والطلبة، فضلا عن تعمير بنايات المدرسة المختلفة، كما انها انشات عددا من الخانقاهات للصوفية والزهاد، وخصصت لهم اجورا شهرية لادارة حياتهم كما ينبغي منعاً الى السعي على أبواب الاخرين من اجل العطاء.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - ابن الاثير، عزالدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد (ت630ه / 1232م)، الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - 1982م.

2 - ابن ابي اصيبعة، موفق الدين احمد بن قاسم(ت668ه/1269م)، عيون الانباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د/ت.

3 - اميدي، كرفان محمد احمد، الملك الاشرف موسى بن الملك العادل الايوبي دوره واثره في الدولة الايوبية، رسالة ماجستير (غ.م)، جامعة صلاح الدين – كلية الاداب – قسم التاريخ، أربيل، 1999م.

4 - الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والاثار، ط1، مطبعة الدار الفنية، عمان، 1985م.

5 - الجابري، سلام علي مزعل، ملكات البلاط الايوبي، ط1، مركز الكتاب الاكاديمي، بيروت، 2021م.

6 - الحلبي، محمد راغب الطباخ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط2، دار القلم العربي، حلب، 1988م.

7- الحلبي، موفق الدين احمد بن إبراهيم سبط ابن العجمي (ت 884ه / 1479 م)، تحقيق شوقي شعث وفالح البكور، ط1، دار القلم العربي، حلب، 1996م.

8 - الحنبلي، احمد بن إبراهيم (ت876ه/ 1471م)، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996م.

9 - الحنبلي، ابن العماد شهاب الدين ابي الفلاح عبدالحي بن محمد (ت 1089ه / 1678م)، تحقيق محمود الارناؤوط، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 1991م.

10 - الداواداري، ابي بكر بن عبدالله ابن ايبك (ت 736ه / 1432م)، كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في اخبار ملوك بني أيوب) تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، 1972م.

11 - داوي، زينة، عبدالكاظم، رعاية الايوبيين للعلم والعلماء في مصر وبلاد الشام، بحث منشور ضمن وقائع المؤتمر العلمي الرابع لتاريخ العلوم عند العرب، الأردن – جرش، المجلد 20 – العدد2، حزيران، 2023م.

12 - الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت 748ه / 1348 م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1998م ؛سير اعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م ؛ العبر في خبر من غبر،تحقيق ابوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.

13 - سبط ابن الجوزي، شمس الدين ابي المظفر يوسف (ت654ه / 1256م)، مراة الزمان في تواريخ الاعيان، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط1، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2013م.

14 - سلطان،طارق فتحي واحمد رضا احمد، مدارس الخاتونات الايوبيات في بلاد الشام في العصر الايوبي، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد 7، العدد4، الموصل، 2008م.

15 - ابوشامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665ه / 1266م)، الذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثراني، ط2، دار الجيل، بيروت، 1974 م.

16 - ابن شداد، عزالدين محمد بن إبراهيم (684ه / 1285م)، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991م.

17 - الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت764ه / 1363م)، تحقيق احمد الارناؤوط وتركي مصطفى، ط1، دار احياء التراث العربي، بيروت / 2000م.

18 - ابن العديم، كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد (ت 660ه / 1262 م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

19 - علي، محمد كرد، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، 1969م.

20 - ابن العميد، المكين عبدالله جرجس بن ابي ياسر (ت672ه / 1273م)، المركز الإسلامي للطباعة، القاهرة، د/ت.

21 - عيسى، علي نجم، حلب في العهد الايوبي، أطروحة دكتورا (غ.م) جامعة الموصل – كلية الاداب - قسم التاريخ، الموصل، 1999م.

22 - ابوالفداء، الملك المؤيد عمادالدين إسماعيل ابن علي (ت732ه / 1331م)، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، د/ت.

23 - ابن الفرات، ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم (ت 807ه م 1405م)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع، البصرة، 1970 م.

24 - ابن فضل الله العمري،شهاب الدين احمد بن يحيى (ت749ه / 1348م)،تحقيق مهدي النجم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.

25 - القرماني، أبو العباس احمد حلمي بن يوسف (ت 1019ه / 1610م)، اخبار الدول واثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، 1975م.

26 - القضاة، سناء احمد فلاح، المراة في مصر وبلاد الشام في العصر الايوبي، أطروحة دكتوراه (غ.م)، جامعة اليرموك (الأردن) كلية الاداب – قسم التاريخ، اربد، 2007م.

27 - القلقشندي، شهاب الدين احمد بن علي (ت 821ه / 1418م)، مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار احمد فراج، عالم الكتب، بيروت، د/ت.

28 - ابن كثير، ابوالفداءاسماعيل الدمشقي(ت 774ه / 1373م)،البداية والنهاية، تحقيق احمد ابوملحم واخرون، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

29 - كحالة، عمر رضا، اعلام النساء، دمشق، د/ت.

30 - المقريزي، تقي الدين ابي العباس احمد بن علي (ت845ه / 1441م)، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

31 - النويري، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (733ه / 1332م)، تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

32 - ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت 749ه/1349م)،تاريخ ابن الوردي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

33 - ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697ه / 1298 م)، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، الجزء الثالث تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1960م ؛ الجزأين الرابع والخامس، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1972م